10 سنوات

بسام حجار... في الحضور كما في الغياب

حياة الأشياء وموت الأحياء

محمد مظلوم *

يرحل الشاعرُ، ويترك لنا ظلالَ حياته مشرَّدةً في كتبه، لتعقّب سيرته المتخفيَّة خلف ذلك المجاز من الظلال، لكنَّ ذكرى رحيل الشاعر قد تكون مناسبةً نموذجيَّةً لقراءة سيرة موته في أشعار حياته وكأنَّه حيٌّ بيننا! لنفهم إلى أي مدى كان «الموت في الحياة» بطلاً ملحمياً في تلك الحياة، أكثر من كونه صُنواً لها.

عشرُ سنواتٍ مرَّتْ على غياب بسَّام حجَّار، وأنْ يحضر بيننا الآن، فهو استحقاق ليس هيِّناً أن يحظى به الكثير من الشعراء الراحلين، استحقاق يُظهر أنَّ الموت العضويِّ لشاعر حقيقيٍّ، ليس سوى غيابٍ جسدي، فما من شاعر خلاق، يريدُ أن ينتهي حضوره بمجرد الرحيل عن العالم، لأنَّ شاعراً بهذا التوصيف يُمضي حياته كلَّها وهو يحاول أن يضرب موعداً صعباً مع الخلود، ذلك أنه يسعى دائماً أن يبقى قريناً للكون، لهذا يغارُ من الأشياء والجمادات وعناصر الطبيعة الأكثر رسوخاً وربما خلوداً حتى وهي تتحوَّل وتنمسخُ من شكل إلى آخر، وتحت تحريض هذه «الغيرة» يتفرَّغ إلى مواجهة وربما محاورة ندَّه الأبدي في معركة الخلود التي لا تنتهي: الموت، بتحديه أحياناً وأنسنته أحياناً أخرى ليصبح جزءاً معتاداً في يومياته من أجل تسهيل المهمَّة الصعبة في المواجهة الأخيرة والكبرى. وبسَّام حجَّار من أولئك الشعراء الذين أولوا جانباً كبيراً من تجربتهم لاستقراء سطوة ذلك الخصم اللدود، ومحاولة إغوائه والاقتراب منه إلى أقصى حدٍّ ممكن للتعرُّف على لغزه المحتجب، وهو وإنْ أفصحَ عن شعوره بلا جدوى المحاولات التي سبقته إذ: «لم يفسر لي أحد من قبل معنى التراب» و«لم يَقُل لي أحدٌ ما معنى الأسى» إلا أن الرجل الهادئ المشغول «بمهن القسوة» تصدَّى مُنفرداً في محاولة شاقَّة لـ «تفسير الرخام» عنوان آخر دواوينه الذي حاولَ فيه إيجادَ تفسيرٍ لِما هو عصيٌّ ومستحيل. أعني تلك العلاقة الوجودية الملتبسة بين الحياة والموت.

في هذا الديوان، كما في كثير من شعر بسَّام، تغدو العناصرُ والأشياءُ والجمادات التي تتجلَّى في الطبيعة لتتدخَّل في تشكيل مَشاهد الحياة: التراب، والرخام، والخشب... هي ذاتها التي تعود للحياة مُفصحةً عن وجه آخر: الموت، تغدو قبراً وشاهدةً وتابوتاً، وهي التي كانت لها، من قبلُ، سيرة داخلَ حياة الشاعر الشخصية، فالخشب يروي لنا سيرته عبر تحوله من شجرة في غابة يوماً ما، قبل أن يمسخ في الحياة اليومية بهيئة طاولةِ طعامٍ في غرفة المعيشة أو في المكتب، أو كرسي للاسترخاء أو باب لخروج ودخول القادمين والراحلين، وبدافع من تلك الغيرة التي يتداخل فيها الحسد بالغبطة يخاطب بسَّام الخشب أو الشجرة التي أصبحت باباً: «أيها الباب ستحيا من بعدي» وهكذا لن ينسى السيرة السرية لتلك الأشياء وأنها في سيرتها تلك تضمر كناية مُستبطنة للدلالة على تحوُّلات حياته هو وصولاً إلى مصيره، فهذه الأشياء تبدو جمادات ميِّتة، ظاهرياً، إلا أنها تكتسب في الواقع حياةً وسيرةً خاصة بها بقدر ما تتبدَّى لنا في الشعور، فكما جاورته في الحياة فهي ستحتضنه بالموت: فتصبح الشجرة التي كانت حيَّة وخضراء في الغابة تابوتاً أسودَ لجنازته بعد أن رافقته في حياته، وبمثل هذا التحوَّل يغدو الرخام مرآة يتجلى فيها تاريخ موته، بعد أن كانت تعكس صوراً مختلفة لسيرته، هذه الأشياء والعناصر التي تدخَّلتْ في تشييد منزله وتأثيثه، هي نفسها في الجوهر أثاث موته. من هنا فما من فرق حاسم بين القبر والبيت أو بينه وبين غرفة النوم حيث: «يوسِّدُني حجرٌ / ويغطِّيني حجرٌ/ وحجرٌ أبيضُ يَروي سِيرتي/ من فم التراب»

> فكرة «الزومبي» تحضر بقوّة في شعره حتى أنه يقترب من وصف نفسه بأنه «ميّت حي»

وإذ يتكرر الحجر بدلالاته اللغوية المتعدِّدة من تُراب ورُخام وصخر، وجدار... إلخ بصوّرة لافتة في شعر بسَّام، فهل يمكننا أن نقترح دراسة لتلك العلاقة في البنية اللا واعية بين الكنية الشخصية لصاحب «مهن شاقة» وبين الكناية اللغوية للطبيعة: أي ما بين «حجَّار» و«الحجر!» لعل بسام نفسه استشعر ذلك من قبل، فتوجَّه بخطابه نحو تلك الجمادات بوصفها تجلياً لهوية بشرية، إذ كان قد وصف الجدار بأنه «شخص من الحجارة والكلس تفضحُهُ الرطوبة والشقوق كمنْ يتكلَّمُ في نومه». وإذ تتموَّجُ صُور الأشياء من حوله ما بين عالمي الذاكرة والنسيان، فإنه يلوذ بـ «السهو» و«الغيبوبة» لمخاتلة الذاكرة ورعب المصير، فالغيبوبة عن الوجود تنطوي على حضور «للموتى الأحياء» الذين يقيمون بيننا ونحن ساهون عنهمَ! والواقع أن فكرة «الزومبي» (وفق معتقدات الشعوب القديمة وليس كما تصوُّره سينما الرعب) تحضر بقوَّة في شعر بسَّام بل يمكننا أن نرى أنه عاش مسكوناً بشيء من تلك الفكرة حتى أنه يقترب من وصف نفسه بأنه «ميِّت حي»، فهو يخاطب الساكن في «مزار بجنب الطريق»: «إنّي أتحدّث عنكَ/ كما يتحدّث أحياءٌ عن أحياء مثلهم». وهو لا يهتمُّ أن يَرَى أكثر مما يُرى: «ولا أبالي . حين أنظر ساهياً . بي أنا الذي لا يبالي». ذلك أن «الميت الحي» ميت في ذاكرته لكنَّه قادرٌ على التحرّك في الحياة، بما يشبه الغيبوبة. ولعل هذا ما جعل عالم بسَّام الشعري مُستغرقاً في حيزٍ صغير وقاموس متقشف، والاكتفاء من البلاغة بخطابها، ذلك أنه أصغى كثيراً لبلاغة ظلامه الداخلي، فبسَّام لا يأنس إلى «المحسّنات البديعية» لفظية كانت أم معنوية، بل ينحاز إلى كثافة المعنى المظلم داخله وهو يتموّج خلف كلمات قليلة بسيطة وعادية من قاموس محدود، لكنها مشحونة بالأحاسيس. ولذلك فإن ثمة خطاباً فصيحاً في شعر بسَّام، ومن هنا تجنبه الواضح للألفاظ والتراكيب المعقَّدة في الجملة اللغوية أو العبارة الشعرية، واهتمامه بالأشياء والأفكار أكثر من الأشخاص، من هنا فإن العزلة الظاهرة في شعره، ناهيك عن طبيعة حياته، ليست مجرَّد عزلة اجتماعية لكنَّها مركَّبة من: الاستغناء والزهد واليأس من المصير الوجودي، ولأنه مزدحمٌ بهذا الإرث الموجع من الأشياء والأفكار، والألم اللا زمني، فقد برعَ في خلق مونولوغ داخلي متعدَّد الأصوات! إذ حتَّم عليه هذا الازدحام الداخلي الملتبس أن يناوبَ بين أصوات متعددة مكتومة داخله مستغنياً كثيراً عن ضجيج الخارج، رغم أنه لم يزهد تماماً في مراقبة هذا الخارج لكن فقط بوصفه صدى يومياً لحركة كونية ووجودية داخله. وهكذا اختار أن يستغرق طويلاً في التأمُّل بكل ما هو عابر وزائل ومؤقت، واستبطانه بديلاً عن أبدية مستحيلة. وهو ما أتاح له أن يصل بتجربته الشعرية في نضوجها إلى قصيدة المرثية Elegy لا بوصفها قصيدة غرض رثائي تقليدي فحسب، بل لأنها قصيدة العزلة والحزن والتأمُّل، فهي وإن بدتْ متجهة، في الظاهر، إلى استذكار راحلين آخرين، إلا أنها قصيدة تأمُّل ذاتي في مرآة موت الآخر متجلياً فيها الموت الذاتي والأسى الشخصي، من هنا مالت تجاربه الأخيرة إلى النبرة الغنائية التي تمنح قصيدة النثر إيقاع الروح القلقة، فتخرجُها من رتابة الإيقاع الخارجي، إلى حرارة الخطاب. وهكذا خرج بسَّام في تجربته الشعرية من الجملة المُوجزة، إلى تداعي العبارة، من «النتفة» إلى «النشيد» ذلك أن مواجهة الأبدية بحاجة إلى نفس طويل في أغنية طويلة. الموت والحياة أيهما «الأغنية الطويلة» يا بسَّام؟ هل تتذكَّر حوارنا في «المستقبل» عن «قصيدة النثر» الطويلة!

* شاعر عراقي

«غرف بجوار البحر» للأميركي إدوارد هوبر (زيت على كانفاس – 73×102 سنتم – 1951)

سيرة الظّل الوحيد...

محمد العتّابي *

«في الموت نتقدم خطوة واحدة
ثمَّ خطوة واحدة
ندخل باختصار شديد
نحيي الواقفين والجالسين والنيام
نسدل الستائر خلفنا
نقفل الأبواب والنوافذ والأحلام والعيون
نطفئ الذاكرة المضيئة في الرواق الطويل»

يُغادر بسّام، يترك الظلّ وحيداً على عتبةِ الغرفةِ التي أظُنُّها المهرب، يفتتحُ النهايةَ بضوءٍ نحيلٍ مثل ابتسامته، هكذا أخاله ابتسم، يخبّئ في معطفه ذاك الدفء الموشومَ بارتعاشة الشتاء، يمتلئ الدخانُ في أرجاءِ الغرفة كأنه حشود خيالاتك/ خيالتهِ عن الرجل الذي صار ظلاً كما أخبره والده ذات ومض، اللحظة التي تقرأ فيها الهدوء المتسرب من فراغ الشوارع في الإجازات، مصابيحُ تذوي آخر الليل بينما يخلعُ بسّام شحوب تغريد الكناري الذي ترك القفص خالياً مثل غروب وجوه الباعة الجوالين آخر النهار.

مما أراه في ردهة الجلوسِ أنّ الصورةَ الماثلة أمامه كانت الأيدي الممدودة المفتوحة لاحتمالات المصافحة، في ليلةٍ من ليالي شباط، تتحدث الأيدي بنبرةٍ تشبه لذع النبيذ معه، عنه، إليه، عن الطيف الذي يسكنه، عن الفكرة التي سار إليها وسارت إليه بالشغفِ الخفي الممزوج باللامبالاة، وانتباه الحجر لصلواتٍ تحتفي بالهمس، للعشبةِ التي تحتضن صدعَ الجدار الذي يدعونه الحياةَ، ويسميه الموت.

طوبى للوردة التي تستنشق السماء وتمد لها العطر.

طوبى للحجر الذي احتضن في صدره وجه وردة.

«كلنا شعراء بالفطرة» هكذا قالت ربّة الشعر، تُغربلنا الحياة، نكبرُ وعيناها تراقبان أرواحنا، تُغمضان، ينسابُ الحلمُ من المقلتين فتطير فراشتان، ويورقُ الشعر فينا. كان بسّام حجّار لي مثلها، مثل مقلتيها، كانِ الباب الذي أغبطُ فيه نعمة الشعر، بركةَ الكلِم، مؤانسةَ الغريب، النوم في حضرة السهو، الطيرَ الذي لا يأبه لإشارات المرور، والتفاتة الصبي لجرس البائع المارِ مسرعاً، والنغمة التي تبلّل شفتي حسناءٍ وهي تنشر شعرها على حبل الأمنيات.

مما أراه، يخلعُ نظارته شارداً في تأمل أحوال الطريق، يخلّل أصابعه بين تسريحة الشعر المسدول للخلف، يشعلُ سيجارة، يَحدثُ بسام، وفي مخيلته تحدثُ القصيدة، يُقلّبُ أوراقه التي قرأتها يوماً وأحيت الشعر في فمي.

كيف للحضور أن يكون عنوانِ الموت عنده؟ لِماذا يكون الشعرُ تلويحةَ الوداع الأخير للحياة؟ ما الذي يجعله رسالة الصمتِ عن الألم المتجذّرِ في قارعةِ طريقٍ موحشٍ بكائناتٍ يألفها ولا نعرفها؟

«الشعرُ هو تأسيس الكائن بالكلمة». يقول هايدغر، هكذا نمارس الشعر ونؤسس كياناتنا عند قراءة بسّام، يرتحلُ بك نحو الشعر الخالصِ الذي يسائلك عن الوجود، الصرخة الخافتة تجاه القبح والظلم ونفي الإنسان، يذكّرك بالروح الوحيدةِ في أقاصي القرية التي باتت مدينة الخائفين.

بسّام والغرفةُ المضاءة بالمصابيح التي تملؤنا، المشفى المتّشح بالبياضِ عن السواد، الأرصفة التي تنسى تفاصيل الطريق، الوجع قابضاً عليك وهو على شكل وجهك. سوف تحيا بعدنا يا بسّام... وكنت كذلك قبلنا، سوف تحيا القصيدة عن «منار» والرائحة التي تهديك توهجك في الصباح، سوف تحيا من بعدنا الأطيافُ التي تسأل عن حياتها: «كأننا أيها الطيف شقيق غربتك؟»

سوف تحيا مثلما تحيا الأيدي الممدودة المفتوحة لاحتمالات المصافحة في ليلةٍ من ليالي شباط.

ما رأيتك يوماً، لكني أراك الآن، أرى «دلال»... وذكرى ما نحياه بعده بك في المنامِ، أو الصباح.

«لكنْ نامي الآن
نامي الآن
لكي لا أجدكِ متعبةً في الصباح»

* شاعر عراقي مقيم في الكويت

حيث يسود الظلام

عبد المنعم رمضان *

يا للحظ، منذ صباي وأنا أتصور أن الشعراء الرومانسيين وحدهم هم من استعانوا بملاك الموت لإكمال رومانسيتهم، الأصح لتتويجها، لولا أن بعض شعراء الحداثة غازلوا الموت وجلبوه إليهم بمعاداته ومعارضاتهم له، ذلك على الرغم من أنهم يستشهدون غالباً بالعبارة البليغة: الموت نقّاض. هكذا عرف الموت طريقه إلى شعراء جيلي، مرات بالمفاجأة، ومرات بالمرض، فعندما اختار الموت الشاعر المصري علي قنديل والسوري رياض الصالح حسين، وكلاهما في الحقيقة لم أعرفه إلا من شعره، اختارهما بالمفاجأة، واكتفى بأن أصابنا بالحزن العاصف مبكراً، لأنهما كانا طرفين من أطراف مغامراتنا التي كنا في أولها. وعندما، فيما بعد اختار الموت المصري الآخر حلمي سالم واللبناني بسام حجار، اختارهما بالمرض، الأول كان صاحبي، خاصمني وخاصمته، فظن البعض أننا عدوان، ولم نكن، وصالحني وصالحته، وظن البعض أننا رفيقان، وكنا، ولحظة موته كنت الأقرب إليه إلى حد اليقين بأن ما أماته هو خطأ ما ارتكبه مستشفاه. أما بسام حجار فهو ذلك الشاعر الآخر، في المكان الآخر، الذي يصادفني اسمه دائماً على ألسنة الشبان دون الثلاثين أو حولها تقريباً، سواء في مقهى «زهرة البستان» في قلب القاهرة، أو في مقاهي الأطراف، بعض هؤلاء الشبان، كان يبحث عن دواوينه، أعني بسام، ويشكو ندرتها. ولمّا وجدها عندي، رغب في تصويرها، وبعضهم تهلل عندما علم أن جهة ما تنوي إصدار أعماله الشعرية الكاملة قريباً، وكلهم كلهم حدثني عن فتنة ترجماته.

كلهم كلهم حدثني عن كاواباتا حجار، وهاندكه حجار، وسالنجر حجار، وكالفينو حجار، وهرابال حجار. كنت أراهم مفتونين فتصيبني الفتنة وتغريني بالحكي الذي أنا ممسوس به، وتغريهم بالإنصات الذي هم لا يحتملونه. كنت معهم أكتشف بسام حجار مرة ثانية، وأكتشف أن بسام أيامها كان واحداً من قلة تنفلت روحها وتصبح خارج المكان، فيما أصبح أغلب الشبان الآن محمولين على هذا الاتجاه، مما جعل القراء منهم يلتفون دون قصد حول شعر بسام وترجماته كحجر زاوية، وخارج المكان في هذا السياق لا تطابق ما قصده إدوارد سعيد، الذي مع مرضه كتب سيرته المؤجلة منذ أدرك أنه عربي أدت ثقافته الغربية إلى توكيد أصوله العربية بما يفتح الآفاق الرحبة أمام الحوار بين الثقافتين.

في أوائل التسعينيات كما أذكر، صار بسام ضمن فريق ملحق «النهار»، لعلها فترة ولاية أنسي الحاج، عندما كان رئيساً لتحرير الجريدة، لا أذكر الآن موقع شوقي أبي شقرا. هل كان هو أم إلياس خوري رئيساً لتحرير الملحق، عموماً الثلاثة من عشيرتي الأقربين، الثلاثة مقدّمون على كثيرين سواهم، ذات صباح من صباحات تلك الأيام، تسلّمت خطاباً بريدياً قادماً من بسام. كان يدعوني إلى مشاركتهم بأن أتكفل بإعداد رسالة القاهرة، كأنْ أختار القصائد والقصص والمقالات. أما المكافآت فسوف تتراوح بين الخمسين والمئة دولار، لم أكن قمت بمثل هذا العمل من قبل، ولن أقوم به من بعد، ومع ذلك فرحت لأنه سيحول علاقتي الرمزية ببيروت إلى علاقة فعلية مشتهاة، ومما شجعني أكثر على الصمت والقبول، معرفتي بأن عباس بيضون أحد أعضاء هيئة تحرير الملحق، وكنت أزعم لنفسي وما زلت، أنني أعرفه، وأن مسيرته السياسية والشعرية قد تضعنا معاً في سماوات قريبة. أيامها كنت أزعم لنفسي أنني أعرف رأس بيروت، وأن رأس بيروت يشبه رأس عباس، حيث عباس بيضون مغمور بالمكان، إلى الحد الذي لفتني فيما بعد إلى احتمال وجود شعر بسام حجار خارج المكان.

المهم أنني آنذاك لم أكن تعرفت بنَفَس طويل على أعمال بسام، وكنت أحسب أن قطاعاً كبيراً من الحداثة الشعرية، خاصة حداثة بيروت، يكاد أو يرغب أن يكون خارج المكان. على الرغم من ذلك، ما زلت أذكر ما كتبه وضاح شرارة ذات مرة، كتب يقول: وديع سعادة، عباس بيضون، وبسام حجار: في سنة واحدة، 1985 ينبغي لقارئ الشعر أن يُعلِّم حَجَر هذه السنة بعلامة بيضاء. انتهى كلام وضاح، في هذه السنة أصدر بسام ديوانه «لأروي كمن يخاف أن يرى»، وكان يحوي موجودات العالم جميعاً في كل مكان، أبواباً وصناديق ونوماً وضوءاً وهواء وليلاً وغباراً ونوافذ وغرفاً إلخ إلخ، عندما راسلني بسام، كنت فقط أعرف ديوانه ذاك، بعدها ستنتظم علاقتي بشعره وترجماته. كنت أقرأ الآخرين معه، ولم أكن تعرفت شخصياً على أحدهم باستثناء عباس بيضون الذي قابلته في «زهرة البستان»، سنة 1982، فيما بعد سأتعرف عليهم جميعاً، وديع سعادة وبول شاؤول ورشيد الضعيف، الذين يمثلون مع آخرين الفصل التالي من فصول قصيدة النثر.

> هو ذلك الشاعر الآخر، في المكان الآخر، الذي يصادفني اسمه دائماً على ألسنة الشبان دون الثلاثين أو حولها تقريباً

فقط فاتني ذكر محمد العبد الله الذي سينال موته من قوتي، كأنه شرفة داخل نفسي، في جهة أخرى من بيروت، لنفترض أنها جهة الجنوب. كان هناك امتداد نشِط للشعراء الرواد، بموسيقاهم وحليّهم الكثيرة، بقضاياهم الكبرى، كنت أتابعهم بدأب أيضاً، محمد علي شمس الدين وحسن العبد الله وجودت فخر الدين وشوقي بزيع. لم يتوقف أحدهم عن الغناء، وإنْ بتفاوت، بين غزارة الأول والأخير، ونزارة حسن وجودت، وكانوا يحققون شروط تجليات المكان في زمانه المحدد، كأنهم علامات على الطريق الذي قد نجتاز بعضه، أعود وأقول استجبت لدعوة بسام، وأرسلت رسالتي الأولى، والتي أصبحت الأخيرة. أرفقت بالرسالة شرطي الوحيد، ضرورة إرسال كشف مكافآت يسمح لصاحب المادة المنشورة بالاطلاع والتوقيع على استلام مكافأته التي تتقرر قيمتها بعد استشارتي لأنني الأقرب منهم إلى الكُتّاب المصريين، وبالتالي الأقدر على تمييزهم. كنت بيروقراطياً غشيماً مثل الليل ومثل النهار، كما كنت مدفوعاً أيضاً بالحرص الذي استعدتُ معه ذكرى ضياع كل مكافأتي عندما نشرت قصائدي في مجلة «الثقافة العراقية»، مجلة صلاح خالص وليست مجلة الشيوعيين، حيث كان مراسلها، الصحافي اليساري الشهير، يعتذر دائماً بتأخر المكافآت. عموماً، لم يراسلني بسام ثانية، وظللت أتابعه وأتابع ملحق «النهار»، قارئاً في الأغلب، كاتباً أحياناً، ونسينا، بسام وأنا، نسينا في صمت دافئ حكاية المراسل. في سنة 1992، أرسل بسام ديوانه «فقط لو يدك»، بإهداء مكتوب بحبر أزرق برونزي، في نصفيْ سطرين، الأعلى عبد المنعم رمضان، والأدنى خالص المودة والتقدير، ثم مسافة رأسية بيضاء ونصفا سطرين آخران، الأعلى بسام حجار، والأدنى بيروت في 1992/02/28. مازلت أتأمل هذا الإهداء، إنه أيضاً محايد، حتى مع حضور المودة والتقدير، إنه أيضاً خارج المكان، حتى مع حضور كلمة بيروت. عموماً لم يكن هناك ما يجعل بسام حجار يندفع نحوي ويفتح لي لسانه وقلبه، احترمت على مضض تقشفه، وحرصت على متابعة ما يصدره من دواوين وترجمات، كأنني أتلصص عليه، رأيته داخل شعره في صحبة نفسه، ورأيته داخل ترجماته في صحبة سالنجر وهرابال وكالفينو، فابتهجتُ، ورأيته أيضاً في صحبة الظلال، فاختلجتُ، وقلت لعل ديمومة الظلال وحصانتها أغوته كما أغوت غيره. في كتابيه البديعين «مجرد تعب» و«صحبة الظلال»، تتحقق إلى الحد الذي يُحتمل يوتوبيا بسام حجار، يوتوبيا الظلال، يوتوبيا أن تنغمس في المكان وتتجرد منه وتصير خارجه، وأن تنغمس في الزمان، ماضيه وحاضره ومستقبله، وتتجرد منه وتصير خارجه، كأنك على حافة الكهف. سأسمح لك أن تظن الكهف هو كهف أفلاطون، كأن آنا أخماتوفا تقول لك على لسان بسام، كما روى بسام ذات يقظة، كل الأشياء التي أراها سوف تحيا من بعدي، وكأن بسام حجار نفسه يقول على لسان بسام، كما روى بسام ذات غفلة، أيها الباب سوف تحيا من بعدي، أيها الضوء سوف تحيا من بعدي، أيها المكان سوف تحيا من بعدي.

قبل أن أقابل بسام، كنت أتخيله، لم أستطع أن أستعين بصورته على بعض أغلفة كتبه، ظننتها صوراً مغشوشة لإخفائه لا لإظهاره، إلى أن قابلته أول مرة في باريس، وآخر مرة أيضاً، أظنه كان بغير شارب على خلاف الصور، وأظن أن عينيه كانتا غائمتين، هما في الصور مندهشتان، فقط بعض عناوين كتبه كانت تشبهه. الشخص الذي رأيته وسلمت عليه، كان كمن يخاف أن يَرى، كمن يخاف أن يُرى، كان بالفعل في صحبة الظلال، كان بالفعل بالفعل مجرد تعب، لم أعرف أثناءها أنه مريض بذلك المرض، لكنني قرب نهاية الرحلة عندما تساءلت عنه، وشوشني أحدهم، ولم أفهم، أصررت على أن بسام يبكي محبوباً ضاع منه، كنت أتمنى أن تكون الحكاية هكذا. عيناه ظلتا طوال الرحلة مخفيّتين، ولمّا عدت إلى القاهرة، أعدت قراءته، وقبل أن أتم حدسي وتخميني، فاجأني موته، فاستعنتُ كي أتعزى بعباراته: ليتخيل أحدكم الظلام مرآةً، ولو معتمة، يسير بمحاذاتها على وجه الدقة، ويصحبه الظل، ظله، في الجهة الأخرى من المرآة حيث يسود الظلام. انتهت عبارته، وانتهت عبارتي، كأنني أرى ظله حيث يسود الظلام.

* شاعر مصري

حالُ الصَّمتِ وأحوالُ الحضور

سعد الياسري *

مدركاً أنَّ كنهَ الحداثة «ثورة»، ولا شأن لها - شِعريّاً- بالوزن والقافية والشكل والتفاصيل هينة الشأن، وأنها حُمَّى انفتاحٍ وآليةُ تفكير كذلك؛ كتبَ بسَّام حجَّار قصيدته التي يسعنا وضعها -ووَضعه بالطبع- في طليعة جيلٍ يروقني تسميته بـ «جيل الدَّم الثاني»؛ أعني دمَ الحداثةِ الثاني المجدَّد. لقد جمعَ بسَّام حجَّار خلال مسيرته، شاعراً ومترجماً وإنساناً، نوادرَ الخصال في بَني عصره، حيثُ ألَّفَ بين الطبع الرقيق، والروح المتَّقدة بالشغف، والعقل العنيد الذي لا يركنُ إلى الإجابات القريبة، وبين الذوق الصوفي – العرفاني – ذي العفَّة، الذوق الذي نحتَ إنساناً عاليَ الهمَّة ينفُذ عميقاً بشكلٍ نادر، ولا ينتشرُ أفقيّاً بلا طائل كما هو سائد.

بالنسبة إليَّ، اشتبكتُ مع منجزِ بسَّام حجَّار بمتعةٍ، ووقفتُ مع «معجم الأشواق» مطوَّلاً؛ حتى أنَّني عكفت قبل سنوات على إعداد «حاشية على معجم الأشواق» انسجاماً مع أجواء هذا العمل الفارق برأيي؛ مهداةٍ لروحه الحية، وبالفعل أنجزتُ منها فصولاً لولا أنَّ كسلي يحول بيني وتمامها. على أنني في كلِّ مرة أعود لمنجزه أو لمعجمه أكتشف سمو منزلته، وفيض عاطفته، وكلاهما بعيدٌ عن الزينة والزخرف، ومجردٌ من الحشو. اللّافتُ لي، لم يدخل بسّام حجَّار إلى القصيدة، أو إلى حقل الترجمة بوصفها قرينة إبداعه الأغزر، مدججاً بغير الصدق النادر. ولم يخرج من الحياة محمولاً على غير الفقد الذي قلَّما يتفق لرجل بلا أسلاف وبلا أصنام وبلا انتصارات، كما لم يخض في وحل المعارك الأدبية أو الصحافية الكبرى؛ الرجل – الطفل الذي ألقى الضوء على سريرته ومَشى يلاحق ظلّه فيها. منذ «مشاغل رجل هادئ»، مروراً بـ«فقط لو يدك»، و«مهن القسوة»، و«بضعة أشياء»، وحتى تحفته الروحية - المعجمية الفاصلة بين زمني القصيدة وأزمان المفردة «معجم الأشواق» وما بعد ذلك وما قبله، وبشتَّى ترجماته الفارقة؛ كان بسَّام حجَّار شاعراً ناضج المفردة يحترم قارئه، ومترجماً يفرض على متلقيه رِفعة ذائقته التي لا يُجادَل في أهميتها وقيمتها، كما كان رائياً -لا «يروي كمن يخاف أن يرى» بل يلتمس بعيدَ غاياته بحدس البصيرة وجلاء البصر.

نعم، لقد دخل بسَّام حجَّار في حال صمته، بينما لا يزال صوته حيّاً في «هذا وجهُ لأنَّها تراه، وهذا قلبُ لأنَّهُ يُقيمُ في ألمِ انتظارِها»، وكذلك في «لماذا لا ترسُمينَ العالمَ كُلَّهُ؛ لكي يُتاحَ لهُ أن يشْبهَ شيئاً»، أو في «الغرفةُ، باستثناءِ قُبلتكِ، خاليةٌ». ولا تزال رقَّته تحضر طاغية في استعادته «لا الألمُ، بل مكانةُ بعدَ أن يزولَ، مكانةُ الذي لهُ: يبقى موجعاً»، وفي «أتبصرُ شرفةً مُضاءةً؟ إنَّها قلبي أيها الغريبُ!». الآنَ، وبعد عشرِ مضين على رحيل هذا العرفاني الوديع: السَّلام على بسَّام حجَّارٍ الذي زعمَ «أنتِ غائبةٌ. أنا غائبٌ. والأشياءُ غائبةٌ أيضاً»، فلم يغب بعدُ، ولم تغبْ أشياؤه التي تُشهدُنا – وقتَ شئنا – أحوالَ حضورهِ بيننا.

* شاعر وكاتب من العراق